قراءة في ومضة "دفء" لهيفاء حمّاد

د. هيفاء حمودة، سوريا

دفء[16]

شعرت ببسمته تتجاوز الزمان والمكان كلما فرك يديه.اعتقدتُ انه الدفء، فخيامهم باردة.

كلٌّ بعيد عن داره هو في خيمة الغربة، حتى ولو كانت خيمته في حديقة الوطن، هي ومضةٌ معبرة، والمشهد حارّ، يغريك برسم صورة فنية لها أبعادها النفسية والإنسانية، قد تكون مطبوعة في مخيلتك عنواناً لحدث موجود في الحياة؛ سيما الحالية. سعت الكاتبة لنقل صورة من الواقع، تنبض أمامك حيّة رمزها الابتسامة "بسمته"، إنها السرّ الذي تحمله الشخصية المروي عنها في المشهد الذي ينفتح على أكثر من تأويل.

تبدأ الومضة بالفعل الداخلي "شعرتُ" للراوي بلسان المتكلم، وهو شعور ليس بالضرورة أن يكون صادقاً أو دقيقاً بدليل الفعل: "اعتقدت"، "بسمتهُ" وهي محور الحكاية السردية التي لا تقف عند حدود الوجه أو الشفاه، بل "تتجاوز الزمان والمكان". ويمكن أن يكون الزمان هنا بمثابة الرجوع بالذاكرة إلى الماضي القريب أو البعيد، وربما قفز إلى أمداء الزمان

[16] هيفاء حماد. بوح ياسمين. الكتاب الخامس في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، طبعة ثانية. مايو 2015. ص 17.

الحالي اللامرئي. أما المكان؛ فلا يعني برداً وخيمةً، بل يتجاوزه إلى الفضاء بمعنى الزمان والمكان والحركة، وهو أوسع وأعمق من حدود صغيرة تكاد تخنق الإنسان.

إن ابتسامة "بسمته" عابرة محلقة في أرجاء أفكارها النفسية، وغائصة في حالاتها، بحيث تنظر إلى اللامحدود عبر داخلها كي تبدو وكأنها سرٌّ رسمته يد فنان لخلق التأويلات المختلفة، وكل يدلو بدلوه. قد تكون ساخرة من واقع بات قابضاً على مفصل الروح من شدة الألم والعجز حيث تحولت الابتسامة إلى تجربة. وقد تكون "بسمته" رضىً ورضوخاً أمام الواقع المرير الذي لا حلَّ له، والعيش في الحياة لأنها حياة ولا شيء غير ذلك . ويمكن أن تكون حلماً جميلاً يراوده والهدف هو تحقيقه. وهو من وجهة نظر ما لا يصور لنا حالته فحسب؛ بل هو رمز لحالات كثيرة قهرها زمانها.

وفي منحى آخر؛ يمكن أن تكون خجلاً وارتباكاً من الناظر إليه. أما مع الفعل "فرك يديه" الذي يحمل دلالاته النفسية، فقد تعني الظفر أو الخجل أو الخبث أو التوهان في ملكوت غائبة عن الزمان والمكان الفعليين. وقد يكون الفرح. سيّما وأنه لدينا جمالية ثانية تزيد حدَّة التوتر السردي المتمثل بالفعل "فرك" مع الظرف "كلما" الذي يفيد معنى تكرار الفعل، وفي كل مرة تصاحبه "بسمته" إلى عوالم مختلفة ليست الفرح من أجل الدفء، لأن الراوية أتت بالفعل "اعتقدت أنه الدفء"، وهذا على أساس الواقع المعاش

والمرئي. إلا أن الفعل "اعتقدت" هنا دلَّ على أن المتكلم كان قد استدل على شيء آخر.

أخيراً؛ جاءت المفارقة المخالفة للمفارقات المألوفة، والمضادة للحدث الأول والتي تمثلت بـ "فخيامهم باردة" مقابلة لكلمة "فرح"، وهذا يدل على معاناة أكبر بكثير من موضوع الدفء وأكثر مما يمكن لأي شخص أن يفهم طبيعة هذه المعاناة. إن كلمة "خيامهم" التي دلت على الجماعة من خلال الضمير "هم" تتوج الومضة بالهمِّ الإنساني العام لما يحدث. لقد نجحت الراوية بنقل الصورة من خلال لحظة سردية وامضة مكثفة، حين تآلفت مع سياقها ومنظورها السردي.